مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد ١٢، العدد ٤٧ (صيف ٢٠٠١)، ص ١٤٣

كتب بالعربية

كمال جنبلاط

الرجل والأسطورة

إيغور تيموفييف

ترجمة: خيري الضامن

بيروت: دار النهار، ٢٠٠٠. ٥٣١ صفحة.

حقق كتاب الباحث الروسي إيغور تيموفييف، "كمال جنبلاط: الرجل والأسطورة"، نجاحاً كبيراً إذ صدرت طبعته الأولى عن "دار النهار" (بيروت) في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠، والخامسة بعد أشهر قليلة في نيسان/أبريل ٢٠٠١. وهذه الظاهرة الصحية في الانتشار أصبحت نادرة في المنشورات العربية حيث يعاني الكتاب صعوبات هائلة تحد من نشره وتوزيعه. وليس من شك في أن شخصية جنبلاط تحظى باحترام شديد لأنه كان من أبرز السياسيين العرب الذين جمعوا بين عمق الثقافة الإنسانية الشمولية من جهة، وبين الممارسة العملية عن طريق تأسيس وقيادة الحزب التقدمي الاشتراكي وبعض الجبهات السياسية، اللبنانية والعربية، من جهة أُخرى.

يعتبر هذا الكتاب المنقول عن الروسية سيرة ذاتية متميزة وتعبر بصدق، في كثير من جوانبها، عن حياة جنبلاط ونضالاته. فقد أمضى الباحث عدة أعوام في الاطلاع على أرشيف الأُسرة الجنبلاطية، وأجرى مقابلات شخصية مع رفاق دربه من الذين عايشوه وعرفوا أفكاره عن كثب. وقد اعتمد المنهج الوصفي في دراسة سيرة

جنبلاط الذاتية، انطلاقاً من معرفة شمولية بموقع الأُسرة الجنبلاطية في التطور السياسي والاجتماعي والاقتصادي للمجتمع اللبناني الحديث والمعاصر.

بُني القسم الأول على وثائق غنية فجاء ممتعاً، وعلى غاية في الدقة والموضوعية. إذ نجح الباحث في الجمع بين التوثيق العلمي والتشويق الأدبي، في رسم طفولة كمال جنبلاط، ودراسته، وأبرز الجوانب الأساسية من شخصيته حتى دخوله معترك السياسة في مطلع عهد الاستقلال سنة ١٩٤٣. وتضمن معلومات علمية دقيقة ليست في متناول أغلبية الباحثين. أمّا المقاطع التي تناولت المرحلة الممتدة من الاستقلال حتى نهاية العهد الشهابي، ففيها الكثير من المعطيات الدقيقة والتحليل المعمق، على الرغم من تجاهله عدداً من الدراسات الأكاديمية والوثائق المنشورة في هذا المجال. لكن المقاطع الأخيرة التي درس فيها المرحلة الممتدة من بداية عهد شارل حلو حتى استشهاد جنبلاط في ١٦ آذار/مارس ١٩٧٧، فلم يظهر فيها توثيق علمي كاف، واستند الباحث إلى أخبار الصحف، وذاكرة الأصدقاء ورفاق الدرب، ومنهم من لم يبق وفياً لفكره السياسي، بل تنكر لمقولاته الإصلاحية في شأن كيفية بناء المجتمع اللبناني الجديد على أسس ديمقراطية، عقلانية، وعلمانية مغايرة وذات آفاق مستقبلية. وليس مصادفة أن كثيرين من قدامى قادة الحركة الوطنية التي أطلقها كمال جنبلاط وصلوا إلى سدة الوزارة، واحتلوا مقاعد في مجلس النواب لعدة دورات، لكنهم تخلوا بالكامل عن مقولاته الإصلاحية كافة. كما أن بعض قادة الأحزاب اليسارية تهافت على استرضاء من بيدهم قرار "التعيين الديمقراطي" على أمل تمثيل الشعب اللبناني عن طريق "التعيين الديمقراطي الشرعي".

جاء التحليل السياسي في هذا الجانب سردياً للغاية، وغلب عليه وصف الأحداث المعروفة جيداً، والاعتماد على مقابلات لشخصيات لم تعد مقنعة ومشكوك في صدقية معظم رواياتها. وسلك المؤلف في المقاطع الأخيرة من الكتاب منحى

استعراضياً يغلب عليه التسطيح. وتوصل إلى استنتاجات أهمها أن القوى الحليفة بدأت تبتعد بالتدريج عن جنبلاط وتركته يواجه مصيره وحيداً. وتبنى بالكامل روايات قادة الحركة الوطنية التي تقول إنها سيطرت على أكثر من ٨٠٪ من أراضي لبنان، وأن تدخل الجيش السوري حرمها بناء لبنان العربي الديمقراطي العلماني الموحد. لكن الوقائع الثابتة تؤكد أن مشروع الحركة الوطنية لم يكن لبنانياً بالكامل. وشاركت في تمويله، تبعاً لمراحل الصراع، قوى حليفة كالمقاومة الفلسطينية والنظام السوري، وقوى عربية أُخرى كليبيا، ومصر، والسعودية، والعراق، وصولاً إلى السوفيات، بينما تلقى مشروع القوات اللبنانية دعماً مباشراً من إسرائيل، وفرنسا، والولايات المتحدة الأميركية. فتلاقت مصالح بعض الأطراف، أو تعارضت، تبعاً لمراحل حرب أهلية استمرت أكثر من خمسة عشر عاماً. فلم يكن في قدرة النظام السوري أن يوافق على انتصار الحركة الوطنية على خصومها لأسباب داخلية ناجمة عن طبيعة إصلاحات مقترحة تتعارض مع بنيته، ولأسباب إقليمية ودولية ربما تؤدي إلى تدخل عسكري إسرائيلي وأميركي وأوروبي فيما لو انتصرت الحركة الوطنية، كما حدث فعلاً سنة ١٩٧٨ وسنة ١٩٨٢. فكان على فصائل المقاومة الفلسطينية أن تعيد النظر في سياستها على الساحة اللبنانية بعد أن غرقت فيها وتحولت إلى دولة ضمن الدولة، الأمر الذي جعلها هدفاً لانتقادات قاسية، إلى أن أُجبرت على إخراج قواها المسلحة منه. ولم يكن لبنان مؤهلاً لقيام نظام ديمقراطي علماني على أراضيه وفرضه على قادة الجبهة اللبنانية، كما توهم قادة الحركة الوطنية وفي طليعتهم كمال جنبلاط. وحين أصر على تنفيذ مشروعه تخلت عنه تباعاً فصائل فاعلة في المقاومة الفلسطينية، ومعها مصر، والسعودية، والسوفيات، وكثيرون من قادة الحركة الوطنية الذين كانوا يبحثون لهم عن موقع ثابت على الساحة اللبنانية عبر الارتباط الكامل بالسياسة السورية.

كان جنبلاط بين قلة من الساسة اللبنانيين من ذوي المبادئ الثابتة والمثل الخلقية والوطنية العليا. ولم يشاركه في تلك المثل سوى العميد ريمون إده الذي غادر إلى باريس وتوفي فيها. فرفضا معاً التسليم بدور حصري لسورية في تحديد مسار السياسة اللبنانية. وفي الوقت عينه، انتقدا بشدة القوى اللبنانية التي ربطت مصيرها بالقرار الإسرائيلي. وأصر الاثنان حتى آخر يوم في حياتهما على الإيمان بلبنان وطناً، حراً، سيداً، مستقلاً. ولا تقوم العلاقات اللبنانية . السورية على أساس سيد وتابع، وإنما انطلاقاً من المصالح الحيوية لشعبي البلدين، شرط أن يجسدها قادة وطنيون يتم انتخابهم بأسلوب ديمقراطي حر. كان الاثنان يدركان جيداً أن بنية النظام السوري تتناقض مع بنية النظام اللبناني التي تقوم على الليبرالية الاقتصادية، والحكم الديمقراطي، ورفض تدخل العسكر في السياسة. هكذا بدا الصدام حتمياً. فرسم تيموفييف صورة لجنبلاط أشبه ما تكون بالمثقف القدري، أو البطل الأسطوري في الميتولوجيا اليونانية الذي يسير بنفسه إلى قدره المحتوم رافعاً جبينه عالياً حتى اليوم الأخير. فالحياة وقفة. وكان يردد باستمرار أنه من أُسرة لا يموت أفرادها على فراشهم، وأن الموت ليس سوى حركة مستمرة تقوم على مبدأ التخلص الطوعي من "جسد كثيف" للدخول في "جسد لطيف" حتى بلوغ الكمال، أو النيرفانا على الطريقة الهندوسية.

لقد اتخذ المؤلف من سيرة كمال جنبلاط منطلقاً لتحليل حرب السنتين في لبنان ١٩٧٥ . ١٩٧٦. فنجح في إظهار مشاركته النشيطة فيها من موقعه كزعيم للحركة الوطنية اللبنانية، وكسياسي محنك، وكمثقف واسع الاطلاع. فقدم صورة صادقة لبعض جوانب تلك الحرب، لكنها بدت غير مقنعة في جوانب أُخرى منها. وليس من شك في أن الوثائق العلمية التي سيتم الكشف عنها لاحقاً ستظهر بصورة أعمق الأسباب الحقيقية لحرب السنتين والنتائج التي نجمت عنها، وأبرزها استشهاد

جنبلاط. ختاماً، لقد تضمن هذا الكتاب الكثير من الإيجابيات التي جعلت منه أفضل ما كتب في سيرة كمال جنبلاط الذاتية حتى الآن. مع ذلك، فشخصية هذا القائد الفذ بالغة الغنى ومثيرة للجدل، وهي ما زالت بحاجة إلى مزيد من التوثيق العلمي فيما يتعلق بسيرة حياته المملوءة بالنضال، ولإظهار دوره المميز في تاريخ لبنان المعاصر طوال الحقبة الممتدة من الاستقلال سنة ١٩٤٣ حتى استشهاده في ١٦ آذار/مارس ١٩٧٧.

مسعود ضاهر

مؤرخ لبناني